

قطار الثالثة إلا ربعًا

حمادة حامد محمود نور الدين

في محطة «نجع الريح»، على آخر خطٍّ حديدي في الصعيد، كان الأسطى سعيد ناظر المحطة الوحيد، وحارسها الوحيد، وجرسها الوحيد أيضاً. محطةٌ من غرفتين وساعةٍ نحاسية معلّقة تحت السقف الخشبي، لا يقف فيها إلا قطارٌ واحد في النهار، يأتي ظهراً محمّلاً بالغبار وبائعي الليمون، ثم يمضي كأنه يعتذر عن إزعاجنا.

لكنّ سعيداً لم يكن يغلق المحطة بعد رحيل قطار الظهر. كان يشعل فانوسه كل ليلة قبل الثالثة فجراً بربع ساعة، ويقف على الرصيف الفارغ، ويرفع الفانوس إلى الأمام، كمن ينتظر ضيفاً قدّم وعداً ولم يحدّد موعده.

سأله ابن أخته، وهو شابٌّ جاء من القاهرة يبحث عن عمل: «يا خال، مفيش قطر بعد الضهر. جدول المواعيد قدامك.»

قال سعيد دون أن يلتفت: «الجدول بيكتبه الناس يا ولدي. أما القطر دا، فبيكتب نفسه.»

ضحك الشاب، ثم نام في الغرفة الخلفية، وظنّ أن خاله شاخ وتعبت ذاكرته.

في الثانية والنصف فجراً استيقظ على صوتٍ لم يسمعه في حياته: لم يكن صفيراً ولا هدير عجلات، بل صوت ورقٍ كثير يتقلّب في الهواء، كأن ألف طائرٍ يفتحون كتبهم دفعة واحدة. خرج إلى الرصيف فرأى خاله واقفاً، والفانوس في يده يرتجف، وفي آخر الظلام ضوءاً ذهبياً يقترب من بين النخيل.

كان قطاراً مصنوعاً من شيءٍ يشبه الضباب والدفء. عربته الأولى لها نوافذ من ضوء الشموع، وعلى سقفه ترقص مظاريفُ بيضاء صغيرة، تتطاير ثم تعود كأنها تخاف أن تضيع. توقّف القطار بلا صوت، وفتح بابه الوحيد، وانتظر.

مدّ سعيد يده إلى حقيبة الجلد المعلّقة على كتفه، وأخرج منها رسائل. لم يكن الشاب قد انتبه إلى تلك الحقيبة من قبل. راح خاله يناول الباب مظروفاً بعد مظروف، وهو يقرأ الأسماء بصوتٍ خفيض: «إلى أمّي التي لم أقل لها شكراً». «إلى صديقي الذي كنت أظنّ أنّ الغد يكفينا». «إلى البنت التي وقفت عند الشبّاك ولم أجرؤ على الكلام».

ثم أغلق الباب، وسار القطار مبتعداً، وتبعه المطر الورقيّ حتى ابتلعه الليل.

لم ينم الشاب بعدها. جلس مع خاله على المصطبة الخشبية حتى طلع الفجر، وقال سعيد أخيراً:

«أبوك الله يرحمه كان ناظر المحطة قبلي، وعلّمني السرّ. كل واحد في الدنيا بيكتب رسالة ما بعتهاش. بيكتبها في قلبه، وبيأجّلها، وبيقول: بكرة. ولما بيموت الكلام وهو لسه جوّاه، بيطلع منه ظرفٌ خفيف ويدوّر على قطر. القطر دا بيلمّهم من كل البلاد، وبيوصّلهم لأصحابهم.»

سأل الشاب: «وإزاي بتوصل؟»

ابتسم سعيد: «بتوصل في حلم، أو في خاطر مفاجئ، أو في لحظة حنين من غير سبب. ساعات واحد يبكي وهو مش فاهم ليه. دا يكون ظرفٌ نزل عليه.»

مرّت الأيام، وبقي الشاب في المحطة، فهو لم يجد عملاً أفضل من الانتظار. تعلّم أن يشعل الفانوس، وأن يعدّ الدقائق بلا ساعة، وأن

يميّز رائحة القطر القادم: رائحة خبزٍ دافئ وحبرٍ جديد. وكان كل ليلة يرى ظروفاً أكثر. قال له خاله: «الناس بتأجّل أكتر من الأول.»

وفي ليلةٍ من ليالي الشتاء الطويلة، لم يخرج سعيد إلى الرصيف. وجده الشاب جالساً على كرسيه في الغرفة، الفانوس مطفأ بجانبه، ووجهه هادئ كوجه من أنهى عملاً طويلاً. وعلى الطاولة مظروفٌ أبيض واحد، مكتوب عليه بخطٍّ مرتعش: «إلى ابن أختي. افتح بعد الفجر.»

دفنوا الأسطى سعيد في مقابر النجع تحت نخلةٍ عالية. ولم يفتح الشاب المظروف في الفجر. وضعه في جيبه، وأشعل الفانوس، وذهب إلى الرصيف، لأن الثالثة إلا ربعاً كانت قد اقتربت، ولأن أحداً يجب أن يكون هناك.

جاء القطر في موعده. لكنه هذه المرة توقّف بعد أن مرّ بمسافةٍ قصيرة، كأنه يتردّد. فتح بابه، ولم يكن في العربة الأولى أحد، سوى مقعدٍ خالٍ ومظروفٍ واحد موضوع عليه. تقدّم الشاب بقلبٍ يخفق، وقرأ الاسم على المظروف: «إلى سعيد، من سعيد.»

أخذه، وفهم. كل رسائل الدنيا تصل إلى أصحابها، إلا رسائل ناظر المحطة. كان خاله يحمل كلام الآخرين أربعين سنة، ولم يكتب لنفسه حرفاً، ولا لأخيه، ولا للمرأة التي أحبّها قبل زمنٍ طويل ولم يتزوجها. وعلى باب العربة كُتب هذه المرة، بنفس الخط الضوئي: «اليوم يصل ما أجّله ناظر المحطة.»

جلس الشاب على الرصيف وفتح المظروف الذي في جيبه أولاً. كانت فيه ورقةٌ واحدة: «يا ولدي، لا تنتظر القطر لتعرف أنّ الكلام يجب أن يُقال في وقته. اكتب رسائلك وسلّمها بيدك. وإن بقي في قلبك ما لا يُقال، فاحمله إلى الرصيف. أنا هناك.»

ثم فتح مظروف «سعيد إلى سعيد». كانت فيه كلمةٌ واحدة بخطٍّ صغير: «شكراً.»

في تلك الليلة لم يحمل القطر رسالةً واحدة. صعد الشاب إلى العربة وحيداً بظرفين فارغين، وجلس مكان خاله. ركب القطر الشفاف في أوّل رحلةٍ له، ورأى من النافذة قرى لا يعرفها تضيء بيوتها واحداً بعد واحد: بيتٌ يفتح فيه رجلٌ مظروفاً ويبكي، وبيتٌ تضحك فيه

أمٌّ وهي تقرأ، وبيتٌ يسرع فيه شابٌّ إلى الهاتف ليتصل بصديقٍ قديم.

وعند الفجر، وقف القطر في محطةٍ لا اسم لها. نزل الشاب، فوجد خاله واقفاً على رصيفها، شاباً كما كان قبل أربعين عاماً، يحمل فانوساً جديداً. ولم يتبادلا كلمة. ناوله سعيد حقيبة الجلد، وربّت على كتفه، ثم صعد إلى القطر وجلس على المقعد الخالي. وتحرّك القطر نحو ضوءٍ أوسع من الصباح.

استيقظ الشاب على الرصيف في «نجع الريح»، والشمس تعلو النخيل، وفي يده حقيبة الجلد. فتحها فوجدها فارغة إلا من قلمٍ وبضع أوراق بيضاء.

منذ ذلك اليوم، يمرّ في النجع من يسأل عن ناظر المحطة الذي يترك الأوراق على المصطبة لمن شاء. يكتب فيها الناس، وهم يضحكون في البداية، ثم يصمتون. ويسلّمها الشاب بيده أو يرسلها بالبريد. وما زال يشعل الفانوس في الثالثة إلا ربعاً، لا لينتظر القطر، بل ليذكّر الدنيا بأنّ بين كلمة «بكرة» وكلمة «الآن» رصيفاً قصيراً، وأنّ من يعبره في وقته لا يحتاج قطاراً.

ويقال إنّ أهل النجع صاروا يسمعون ليلاً صوت ورقٍ يتقلّب في الهواء، فيبتسمون، ويطمئنّون أنّ أحداً في مكانٍ ما قد كتب أخيراً.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app